# الفصل الثالث
## ثقافة التبعية والاحتواء (*)

● فى عقد التسعينيات الميلادية الذى يوشك على الانتهاء شاع فى أوساط الإعلاميين والدارسين والمثقفين مصطلح ( العولمة ) وقد ذهب أهل الفكر والنظر فى تفسيره مذاهب شتى فمنهم من ذهب إلى أنها تعنى زوال الخصوصيات والحدود والقبول بثقافة الغالب والانفتاح على آلياته فى الاقتصاد والسياسة والأخلاق والاجتماع؛ لأن ذلك قدر لا مفر منه، ولا سبيل للوقوف أمام اندفاعه الذى يحطم كل شئ يقف فى طريقه، وذهب آخرون إلى تفسير ذلكم المصطلح المراوغ برغبة القوة المهيمنة على العالم بعد انحلال ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي وسقوط الشيوعية فى الانفراد بالتحكم فى السيطرة على العالم وبسط نفوذها وثقافتها على الأمم بالقوة المسخرة لتحقيق أغراض سياسية، فالعولمة وثقافتها من وجهة نظر الفريق الثانى تعنى الخضوع للسيد الجديد والقبول بهيمنته على مقدرات الشعوب والأمم والسير على نهجه ومذهبه ومسلكه حتى وإن دخل جحر ضب خرب !!.

● وقد قطع المروجون لمصطلح ( العولمة ) والقبول بها وبآلياتها باعتبارها قدراً لا يرد شوطاً كبيراً فى التغنى بالمصطلح والإغراء بقبول ثقافته للحاق بركب التقدم والرخاء والازدهار وإلا فستطوينا أمواجه فى الظلمات ، ولتذهب عقائدنا وثقافتنا وخصوصيتنا الحضارية وأخلاقنا إلى حيث تذهب فى رأى هذا الفريق من سماسرة الغزو الثقافى المرتدين حضارياً ارتداداً وصفه أديب الإسلام أبو الحسن على الندوى بأنه ( ردة ولا أبا بكر لها ) !!.

● وما كان المسلمون وأبناء هذه الأمة المجيدة دعاة انغلاق وتخلف وجمود ( كما يصفهم دعاة ثقافة التبعية والمنهزمين حضارياً أمام ثقافة الغالب الذى درسوا فى مدارسه وتربوا على موائده وحثالة أفكاره ونظرياته ) وإنما – هم – أى

---

( * ) صحيفة ( أخبار الخليج ) البحرينية في يوم الجمعة [ ١٠ – ٩ – ١٩٩٩م ].

أبناء الثقافة الإسلامية وأصحاب المشروع الحضارى الإسلامى - دعاة تواصل مع ثقافات العالم وتعاون مع شعوب الدنيا على أسس من العدل والسلام والتلاقح الفكرى؛ لأنهم أصحاب رسالة عالمية يعيشون من أجلها ويموتون فى سبيل الذود عنها وهم مأمورون بتبليغها لبنى الإنسان فى مختلف بقاع المعمورة فرادى وجماعات دولاً وشعوبًا بأسلوب متحضر يقوم على الجدال بالتى هى أحسن والأخذ عن الآخر الحكمة والعلم وما نفع من ثقافته وفق القاعدة التى تقول ( خذ ما صفا ودع ما كدر ) والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها كما علمنا الهدى النبوى الشريف وأدب الإسلام العظيم.

● لكن الذى يرفضه المثقفون المسلمون وأدباء عقيدة التوحيد والثقافة الإيمانية وأصحاب المشروع الحضارى الإسلامى هو الاستسلام لثقافة الهيمنة والتبعية والاحتواء التى تهدف إلى إذابة الخصوصية الثقافية والحضارية والأخلاقية لأمتنا والقبول بالآخر الغالب الغازى المبتسم الذى يرتدى مسوح الرهبان ويلبس قفازات من حرير ويجند رجاله فى وسائل الإعلام والجامعات التابعة له ليرددوا ترديد الببغاوات شعاراته ويجملون أطروحاته ويبشرون بخيراته ومدينته الفاضلة وثقافته العاقلة، وهم فى سبيل ذلك يرتدون أقنعة النفاق والزيف ويجادلون فى استبسال واستماتة عجيبة حتى إنهم يحتفلون بذكرى غزو المستعمر لبلادهم واحتلاله لمدنهم وإذلاله لشعوبهم وقتله لعلمائهم وزعمائهم، وصاروا يرددون فى وضح النهار ما كان يعده الوطنيون إبان الاحتلال خيانة للبلاد وبيعا للديار.

● يقول الدكتور حلمى القاعود الناقد والأستاذ الجامعى: «وقد جرت فى الفترة الماضية مياه آسنة كثيرة صبت فى نهر الثقافة العام واستغلت مناخ العنف والعنف المضاد، وأعلن رموز الثقافة السائدة عن تبعيتهم الكاملة للغرب والانتماء إليه، وذهب البعض فى الإعلان عن ذلك مذهبًا بعيداً حين طالب بعدم التساؤل عن الهوية ( عنوان الحضارة الإسلامية ) بل عدَّها نازية!!.

ورفع القوم شعارات براقة كان أشهرها التنوير والاستنارة والتقدم والتقدمية، فضلاً عن شعار العلمانية التى تعنى فى مفاهيمهم تنحية الإسلام عن الحياة وإحالته إلى التقاعد ثم بعث القوم مقولات قديمة وأفكاراً بالية؛ وقف أصحابها ضد الإسلام، واستقلال الأمة (مقولات سلامة موسى وعلى عبد الرازق، وشبلى شميل على سبيل المثال) [1].

● وقد أكد كبار علماء ومفكرى الأمة ممن يجلهم جمهور الأدباء والمثقفين على خصوصية ثقافتنا وضرورة التنبيه للأخطار والهيمنة الثقافية والتغريب وفرض أسلوب حياة المستعمر الجديد على الشعوب المستضعفة لتستحيل العولمة إلى أوربة وأمركة الحياة فى بلادنا باسم التحديث والتنوير، ومن هذا الفريق الراشد الدكتور أحمد كمال أبو المجد والدكتور أحمد هيكل والمستشار طارق البشرى وغيرهم من الأفذاذ.

– وعندما سأله محرر جريدة (الوفد) المصرية عن كيفية مواجهة الغزو الثقافى والحضارى لأمتنا أجاب الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة السابق والعميد الأسبق لكلية دار العلوم بجامعة القاهرة نواجهه بأمرين: –

**أولا**: أن نفهم الثقافة على وجهها الصحيح ونسعى لتوصيلها إلى الناس.

**ثانيا**: أن تكون لنا ثقافتنا المتميزة فالثقافة لها روافد عامة يشترك فيها العالم كله، لكن هناك رافداً متميزاً لكل ثقافة هو رافد القيم الخاصة التى منبعها الدين والتقاليد والأعراف الموروثة الفاضلة لكل شعب قيمه وأخلاقه وموروثاته وفى هذه النقطة بالذات تتمايز الثقافات وتفترق، إذا احتفظنا بهذا الجانب وعمقناه فى نفوس المواطنين ونحن نمارس تثقيفهم أصبحت لنا الحصانة الكاملة ضد أى غزو ثقافى، وأنا مؤمن بأن هناك غزوا ثقافياً فى هذا الجانب الوجدانى،

---

(١) ثقافة التبعية: (المنهج – الخصائص – التطبيقات) الطبعة الأولى – دار الفضيلة بالقاهرة سنة ١٩٩٧ م ص ٦.

ليس هناك غزو ثقافى فى العلم، كل العلوم والتكنولوجيات إنسانية وللعالم كله، إنما الغزو الثقافى يكون فى الجوانب العقائدية والوجدانية، إذا فرض علينا الآخرون أعرافًا ليست من أعرافنا أو عقائد خاصة ليست من عقائدنا، من هنا يأتى الغزو الذى يتسلل عن طريق البث ووسائط نقل الثقافة التى تحدثنا عنها البعض يعتقد أن الكلام عن الغزو الثقافى رجعية وتخلف، وللعلم فإن أول دولة فى العالم تحدثت عن الغزو الثقافى هى فرنسا فالمصطلح فرنسى، قاوم به الفرنسيون الطغيان الأمريكى على الوجدانيات والخصوصيات والفنيات الفرنسية »[1].

– ويخلص الدكتور هيكل فى حديثه عن تحدى الغزو الثقافى والحضارى لأمتنا فيقول: « فالتأكيد على خصوصية ثقافتنا أمر ضرورى لمجتمع الجانب الأخلاقى فيه له قداسته والجانب الدينى له حرمته والجانب السلوكى له أهميته، فإذا فقدنا هذه الخصوصية ضاعت شخصيتنا فى شخصيات الآخرين وفقدنا هويتنا »[2].

● وإن السعى للقضاء على الخصوصية الثقافية والحضارية لأمتنا هو ما سعى إليه الاحتلال إبان سيطرته العسكرية على بلادنا وإدارته لشئون حياتنا، حيث حرص على بسط نفوذه على التعليم والإعلام لقتل روح المقاومة فى الأمة وإخضاعها لهيمنة المحتل الغازى الغاشم وإذابة خصوصيتها وعزلها عن محيط أمتها، فضرب لغتها وتاريخها وأعلن الحرب على الفصحى لغة القرآن والعلم والحضارة وشوه تاريخ الأمة لتخرج الأجيال منبتة الصلة بتراثها ودينها الذى لا يمكن فهمه إلا باللغة العربية.

– واللافت للنظر أن ذلك المستعمر الذى غير ثوبه بعد الجلاء العسكرى لا يزال يسعى لتحقيق نفس الأهداف بواسطة أتباعه وذيوله وأذنابه المنبثين فى

---

(١، ٢) صحيفة (الوفد) المصرية ص ١١ – فى (٥ من رمضان ١٤١٦ هـ – ٢٥/١/١٩٩٦م).

المؤسسات الوطنية فى معظم بلادنا العربية والإسلامية فى مجال الإعلام والتعليم، ففى مصر كمثال لذلك نجد أنها فى ظل حكم اللورد كرومر عاشت أقصى درجات التدخل فى شئون تعليمها الوطنى حيث عين كرومر القس دنلوب سبكرتيرا عامًا لوزارة المعارف المصرية عام ( ١٨٩٧ هـ ) ثم عين مستشارًا عامًا لها عام ( ١٩٠٦ م ).

– يقول الأستاذ أنور الجندى : « ويعد ( دنلوب ) واضع المخطط الأساسى لتغريب التعليم والتربية وإقصاء الإسلام وتاريخه واللغة العربية عن برامج فى المدرسة المصرية، وهو أيضًا منفذ هذا المخطط والمشرف عليه سنوات طويلة حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وقد عمل ( دنلوب ) على محاربة اللغة العربية والإسلام والأزهر واضطهد معلمى القرآن واللغة العربية من الأزهريين ونشر لواء اللغة الانكليزية وأهَّلها للسيطرة الكاملة على كل شؤون التعليم وقضى على نفوذ اللغة العربية » (١).

– ويمضى الأستاذ الجندى فى تبيان الدور الخطير الذى لعبه القس المستشار دنلوب مؤسس الاستعمار التربوى والعقلى والتعليمى فى مصر حيث يقول : « ويجمع المؤرخون والباحثون على أن القسيس دنلوب هو مؤسس الاستعمار التربوى والعقلى والتعليمى فى مصر؛ ولذلك فقد عمد الحزب الوطنى ( القديم ) إلى إنشاء المدارس الأهلية وقامت الجمعية الخيرية الإسلامية بإشراف الشيخ محمد عبده على فتح المدارس لتعليم أبناء المسلمين وتحريرهم من هذه الأنظمة التى تحطم معنوياتهم » (٢).

* * *

( ١ ، ٢ ) ( التربية وبناء الأجيال فى ضوء الإسلام ) – دار الكتاب اللبنانى – بيروت : الطبعة الأولى. ١٩٧٥ م ص ٩٤.

# الاستعمار العقلى والتربوى (*)

● وفى كتاب ( وجهة الإسلام ) للمستشرق ( هاملتون جب ) وخمسة من المستشرقين عام ( ١٩٣٠م ) أبان المستشرقون الستة وأولهم ( جب ) عن الأهمية القصوى التى يوليها الغرب الأوربى فى السيطرة على التعليم وقد كشف الأستاذ أنور الجندى فى كتابه ( التربية وبناء الأجيال ) عن رؤية المستشرقين فى التعليم واعتبار السيطرة عليه فى بلاد الإسلام ضرورة حيوية لبسط نفوذهم على بلاد الإسلام للحيلولة دون انبعاث المارد الإسلامى ونهضة المسلمين وانطلاقهم للاضطلاع بدورهم فى الارتقاء بالحضارة وتهذيب الإنسان وصحوتهم على الجوهرة الثمينة التى يمتلكونها وتضمن لهم المجد والسيادة والخلود فى دنيا الناس وبعد الممات ألا وهى كتاب الله الخالد ومعجزة الإسلام والقرآن الكريم، وحتى لا يظهر فى المنطقة ( محمد ) جديد كما عبر الإرهابى الصهيونى ابن جوريون من قبل.

– يقول ( جب ) «لقد استطاع نشاطنا التعليمى والثقافى عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك فى المسلمين ولو من غير وعى منهم أثرا يجعلهم فى مظهرهم العام لادينيين إلى حد بعيد، ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللب المثمر فى كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامى على حضارته من آثار» (١).

– وقد أكد ما ذهب إليه المستشرق ( جب ) عن التعليم فى البلاد العربية والإسلامية تحت الاحتلال الدكتور زويمر رئيس المبشرين فى البلاد العربية فى الثلاثينيات حين قال: «إن السياسة الاستعمارية لما قضت من نصف قرن على برامج التعليم فى المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم الإسلام وبذلك أخرجت ناشئة لا هى مسلمة ولا هى مسيحية ولا يهودية ... ناشئة مضطربة

---

( ١ ) التربية وبناء الأجيال فى ضوء الإسلام – الأستاذ أنور الجندى ص ٩٤ .

( * ) صحيفة ( أخبار الخليج ) البحرينية في يوم الجمعة [ ١٧ – ٩ – ١٩٩٩م ].

مادية الأغراض، لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة » [١].

● وقد آلت الحالة التربوية والثقافية فى هذا العقد الأسود من القرن العشرين الذى يراد لبلادنا العربية والإسلامية فيه أن تقبل راضية أو مرغمة بالهيمنة ( الصهيو / أمريكية ) على مقدراتنا وحضارتنا لتمحو ثقافتنا وتحيلنا مسخًا شائهًا لنلقى مصير الهنود الحمر وإقامة أمريكا الجديدة على أنقاض الأمة العربية باسم ( الشرق أوسطية ) وثقافة السلام والرخاء بنفس الأساليب التى سرقت بها فلسطين بالكذب والخداع والقوة.الإرهابية وحرب العصابات الإجرامية، آلت الحالة الثقافية والتربوية الآن فى بعض أقطار البلاد العربية والإسلامية تتجه إلى ما أراد لها دعاة التغريب والأمركة سماسرة الغزو الثقافى من أمثال سلامة موسى ولويس عوض حتى وجدنا مثقفينا وبعض المسؤلين فى مواقع السلطة فى بعض بلداننا العربية يردد وينفذ ما كان يدعو إليه سلامة موسى ودعاة التغريب والأوربة باسم النهضة والتحديث حتى كتب مفكر كبير مثل الدكتور محمد عمارة فى هذا فيقول : « على مجلات وصحف التغريب التى أصدرتها فى مصر مجموعة من المثقفين الموارنة الذين تربوا فى مدارس التبشير الفرنسية بلبنان، ثم هاجروا إلى مصر – فى ظل الاستعمار الانكليزى – ليستخدموا إمكانات مصر فى إشاعة الفكر الوضعى والمادى والعلمانى الغربى على النطاق العربى – على هذه المجلات – وفى مقدمتها ( المقتطف ) و( المقطم ) – تربى وتغذى سلامه موسى ( ١٨٨٨ – ١٩٥٨م ).

ولقد تميز سلامة موسى بالصراحة فى التغريب إلى حد الوقاحة ... وهى وقاحة نحمدها له؛ لأنها أفضل من تغليف التغريب الذى نراه عند الآخرين، تربوا فى ذات المدرسة، ودعوا إلى ذات المقاصد والأهداف » [٢].

---

( ١ ) المصدر السابق ص ٥٨ .

( ٢ ) صحيفة ( الشعب ) القاهرية – العدد ( ١٣٧٢ ) فى ( ٨ من ربيع الأول ١٤٢٠ هـ ) ٢٢ / ٦ / ١٩٩٩ م ص ١٤ .

– ويعرض الدكتور محمد عمارة لمشروع سلامة موسى الفكرى فيقول: «فسلامة موسى قد نشر فى سنة (١٩٢٨م) كتابًا عنوانه (اليوم والغد) تحدث فيه عن مشروعه الفكرى والمقاصد والأهداف التى يعمل لها سرًا وجهرًا على امتداد مشروعه الفكرى ولقد أعلن فى هذا الكتاب عن هذه المقاصد والمرامى فقال: «كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامى أغراضى وهى تتلخص فى أنه:

١ – يجب علينا أن نخرج من الشرق وأن نلتحق بأوربا، فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له، وكلما زادت معرفتى بأوربا زاد حبى لها وتعلقى بها وزاد شعورى بأنها فىَّ وأنا فيها.

٢ – وأريد تعليمًا أوربيا لا سلطان للدين عليه ولا دخل له فيه.

٣ – وحكومة كحكومات أوربا لا كحكومة هارون الرشيد والمأمون.

٤ – وأدبًا أوربيًا، أبطاله مصريون لا رجال الفتوحات العربية.

٥ – وثقافة أوربية لا ثقافة الشرق ثقافة العبودية والتوكل على الآلهة.

٦ – واللغة العامية، لغة الهكسوس، لا العربية الفصحى لغة التقاليد العربية والقرآن.

٧ – والتفرنج فى الأزياء لأنه يبعث فينا العقلية الأوربية.

هذا هو مذهبى، الذى أعمل له طول حياتى، سرًا وجهرا، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب – وإذا كانت الرابطة الشرقية سخافة فإن الرابطة الدينية وقاحة لا تليق بأبناء القرن العشرين» !!.

– ويختم الدكتور محمد عمارة كلمته فيقول: «هكذا تحدث سلامة موسى بصراحة بلغت حد الوقاحة – عن مكانة مدرسة التغريب فهل يعى هذه الحقيقة أناس محترمون «أقرأ بين الحين والحين ثناءهم على هذا «الكائن العجيب؟!»[١].

---

(١) المصدر السابق.

– وبعدُ فهل تتضافر جهود المخلصين من أبناء هذه الأمة للاجتماع على كلمة سواء قبل أن يغرقنا جميعًا الطوفان؟!.

● وفى هذا السياق أتت دراسة الناقد الكبير الدكتور حلمى محمد القاعود بعنوان ( ثقافة التبعية : المنهج – الخصائص – التطبيقات ) فى وقتها المناسب حيث بلغت حملة القوى المعادية للإسلام وثقافتنا الوطنية أوج عنفوانها لم تعد تلتزم معها بثوابت الأمة أو أى خطوط حمراء يمكن – فى تجاوزها – تهديد وحدة الأمة وسلامها الاجتماعى، ويقود هذه الحملة فلول الماركسيين وأدعياء الثقافة والإبداع والانتهازيون والطائفيون والكارهون للإسلام ودعاة التطرف العلمانى.

– وقد تصدى لهؤلاء الشراذم خيرة مثقفى الأمة وأدبائها وإعلامييها فى الصحف والمجلات ومختلف قنوات البث المسموع والمرئى من أمثال الشيخ الداعية محمد الغزالى والدكتور محمد عمارة والأستاذ فهمى هويدى وفضلاء رجال الدعوة وعلماء الأهر.

– ويأتى كتاب الدكتور حلمى القاعود علامة مضيئة فى جبين الوجه الأصيل لثقافة الأمة وأمارة هادية لمواجهة جيوش التضليل وقوافل الكذابين والانتهازيين والمثقفين المزيفين الذين يبيعون ضميرهم بزائف الأضواء ودينهم بدنياهم، يقول الدكتور القاعود عن هدفه من تأليف الكتاب: «وكان مقصدى بيان الحقيقة وكشف زيف وإعلان الانتماء لثقافة الأمة ورفض ثقافة التبعية، وكان هدفى فى النهاية أن يعلم الجيل الجديد الغائب أو المغيب عن معرفة الإسلام، حقائق دينه ومفاهيمه ومقاصده وثقافته وتراثه، وأن يواجه الهجمة التغريبية الشرسة بمنهج مستقيم قوى، لا يخضع للتضليل ولا يرضخ للزيف»[1].

– ويصف المؤلف الكريم الثقافة المادية التى يروج لها ببغاوات حزب نابليون

---

(١) ثقافة التبعية – دار الفضيلة بالقاهرة ص ٩، ١٠.

وأصدقاء العم سام وبنى صهيون بقوله: «إن ثقافة تحارب الغيب أو الخيال الغيبى – كما تسميه – لهى ثقافة شاذة وهابطة».

● واللافت للنظر أن داعية هذه الثقافة المادية يعلن من موقع المسئولية أن مذهبه فى العمل الثقافى يقوم على إحلال الخيال المادى محل الخيال الغيبى، وهو مذهب ينم عن توجه مادى سقط فى بلاده أوربا ذاتها، ومن منطلق هذا المذهب المخرب كانت ثقافة تجفيف المنابع وامتلأت حياتنا بالفنون الهابطة والبرامج التافهة والنجوم المعتمة والأقزام ومدعى العبقرية.

ألقاب مملكة فى غير موضعها  كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

– ويعرض كاتبنا الناقد لمادة كتابه ومحتواه فيقول: «إن مادة هذا الكتاب تعنى ببيان مفهوم التبعية الثقافية أو الثقافة العار أو الغش الثقافى، كما توضح الخصائص والممارسات لثقافة التبعية من خلال الواقع الفكري والأدبى الراهن أملاً فى إصلاح الحياة الثقافية وسعيًا لكشف النباتات المتسلقة فى الفكر المعاصر وانطلاقا نحو ثقافة إسلامية نامية متجددة، لا تهمل الثوابت ولا تتعامى عن المتغيرات وتبنى حواراً خلاقًا من الآخر، أيا كان هذا الآخر، طالما كان هذا الآخر يملك أسس الإبداع الإنسانى الثّريّ والرؤية الإنسانية المتسامحة».

● وبعدُ: فهل تتضافر جهود المخلصين من أبناء هذه الأمة والراشدين من روادها للم الشمل والدعوة إلى أمة واحدة على المستوى القطرى فالعربى فالإسلامى فى مواجهة (اسرائيل واحدة) كمشروع استعمارى استيطانى يستهدف وجودنا وأمتنا ومشروعنا الحضارى ورسالة ديننا وأواصر القربى والدم والعرض والأرض؟! وهل نجتمع على كلمة سواء وعلى حد أدنى من الاتفاق يؤكد الثوابت الوطنية والقومية ويحمى حق الجميع فى الاختلاف والتنوع. تنوع التكامل والقوة فى مواجهة الأخطار المحدقة بنا والتى تطرق أبوابنا بإلحاح مريب وإصرار عجيب؟ وهل نعى هذه الحقائق وندركها جيداً قبل أن يغرقنا الطوفان ؟!

* * *